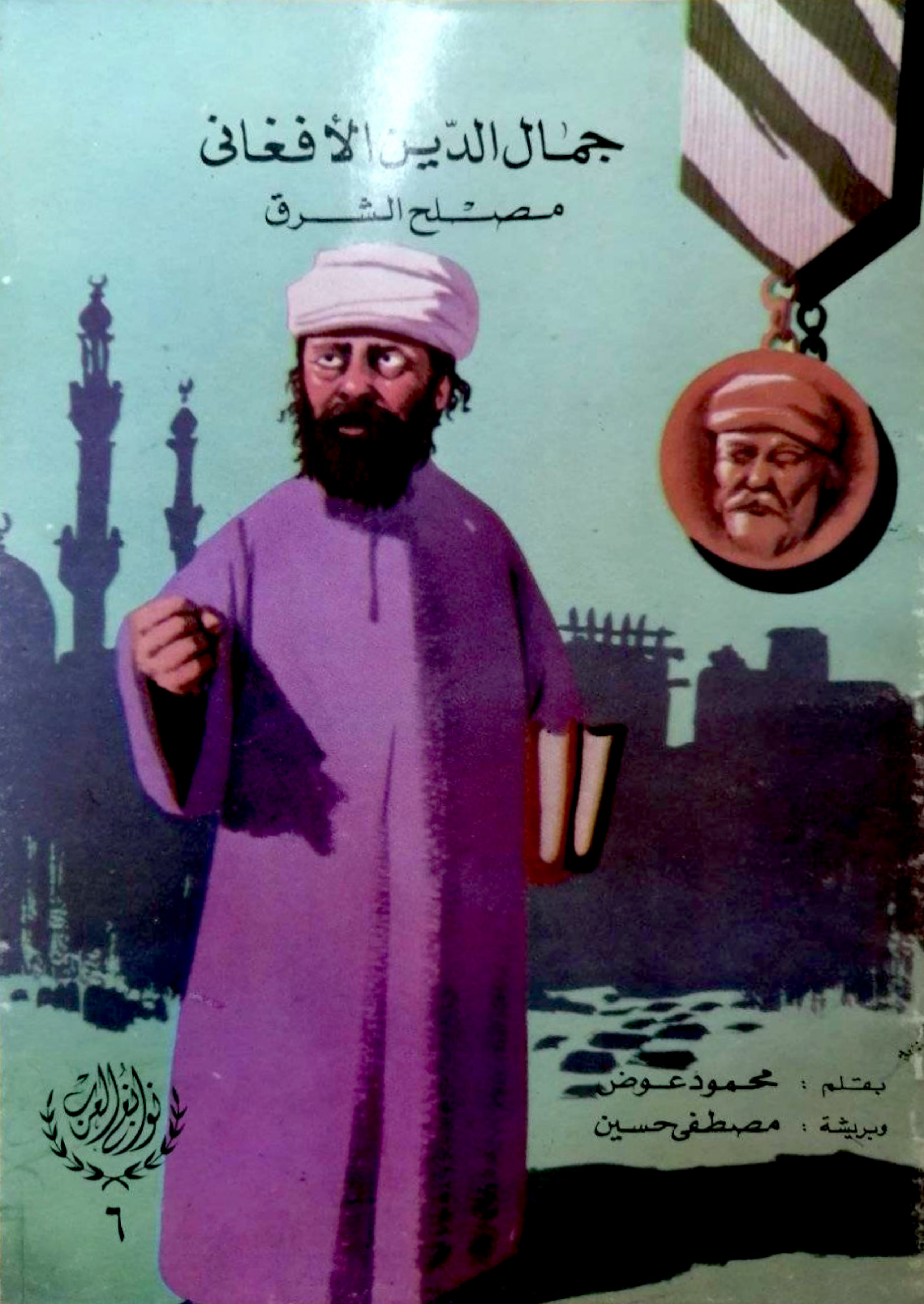
# جمال الدين الأفغانى

## مصلح الشرق



بقلم : محمود عوض
وبريشة : مصطفى حسين

نوابغ العرب

٦

نوابغ العرب

٦

# جمال الدين الأفغانى

## مصلح الشرق

بقلم : محمود عوض

بريشة : مصطفى حسين

الطبعة الثالثة

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوض، محمود
جمال الدين الأفغانى: مصلح الشرق/ بقلم محمود عوض ؛
ريشة مصطفى حسين — ط ٣. — القاهرة: دار المعارف ، ٢٠٠٦
٢٠ ص ؛ ٢٨ سم — (نوابغ العرب ؛ ٦)
تدمك : ١ — ٧٠١٢ — ٠٢ — ٩٧٧
١ — المصلحون. ٢ — جمال الدين الأفغانى، محمود بن الحسين
جمال الدين، ١٨٣٨ - ١٨٩٧
( أ ) حسين، مصطفى (رسام)
(ب) العنوان

ديوى ٩٢٣,٦

رقم الإيداع ٢٢٥٦٦/ ٢٠٠٦ ٦٦/٢٠٠٦/٧

**تنفيذ المتن والغلاف**
**بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات**
**دار المعارف**

**الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع**
**هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg**

# جمال الدّين الأفغانى

فى الحى الحسينى بالقاهرة ، حيث الأزهر ، ومسجد الحسين ، وخان الخليلى ، وحيث كان يعيش أيضاً فى تلك السنة ( ١٨٧٩ ) السيد جمال الدين الأفغانى – فى هذا الحىّ مقهى لا يختلف عن أى مقهى آخر من المقاهى المنتشرة هناك . . مقهى يغمره ضجيج الباعة المتجولين ونداء الصبيان وطلبات الزبائن .

وفى تلك الليلة من ليالى صيف سنة ١٨٧٩ ، بدأت فى المقهى تلك الجلسة التى اعتادها جمال الدين الأفغانى كل ليلة . إنه يجلس وسط تلاميذه ، وهم يشكلون حوله نصف دائرة ، ويضمون بينهم الشاعر والطبيب والجغرافى والمهندس والفقيه والطالب والتاجر . وهو يجلس بينهم بملامحه التى ألفوها كل ليلة : قمحى اللون ، متوسط الطول ، مستدير اللحية . عريض الجبهة ، كبير الرأس ، واسع العينين ، كثيف الحاجبين ، أشم الأنف . بارز الخدين . عريض الشاربين .

إن جمال الدين الأفغانى يجلس وسط هؤلاء التلاميذ والأصدقاء ، الذين يعرف الناس بعضهم ولا يعرفون بعضهم الآخر . إن من بينهم محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله النديم ، وإبراهيم المويلحى ، وسليم النقاش ، وأديب إسحق ، ويعقوب صنوع .

إنه يجلس بينهم ، ينفث دخان سيجارته بحدة وشغف . ولا تكاد سيجارته تنتهى ، حتى يكون تابعه « أبو تراب » قد لف سيجارة أخرى وقدمها إليه . إن الشيخ يسرف فى تدخين السجائر وشرب الشاى . لهذا نجد على مائدته عدداً كبيراً من أباريق الشاى .

وبينما هو يصب بنفسه الشاى لضيوفه ، فإنه يصغى لكل كلمة ، ويجيب عن كل سؤال . إن له لساناً حادّاً فى الجدل ، وعقلا يقظاً فى المناقشة ، وذكاء سريعاً فى الإجابة ، ومهارة فائقة فى الحجة . ومعانى ضخمة فى الحديث ، وبصيرة نافذة فى الملاحظة . إن بعض الجالسين على مائدته يعلم أكثر مما يعلم هو ، وبعضهم قرأ أكثر مما قرأ هو ، وبعضهم عرف لغات أكثر مما عرف هو ، لكن ليس لأحد منهم شخصية كشخصيته هو .

السيد جمال الدين الأفغانى يأسرهم بشخصيته وأسلوبه . إنه سلس الأسلوب ، عذب الكلمات ، سهل المعانى . إنه مادة للكلام فى كل شىء ، حتى فى السيجارة التى يشعلها له تابعه « أبو تراب » . . حتى فى الإبريق الذى يصب منه الشاى فى أقداح ضيوفه . . حتى فى حادثة طلاق أو زواج يرويها له أحد أصدقائه .

ولكن السيد فى تلك الليلة لم يكن يتكلم عن السجائر أو الشاى أو الزواج أو الطلاق . لقد كان يتحدث فى أشياء بعيدة تماماً . . . وجادّة تماماً .

لقد كان يقول : « . . لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم إذا لم يقم منهم من يحيى آثار رجال تاريخهم ، فيعمل عملهم وينسج على منوالهم » .

بعد لحظات يقول الشيخ : « انظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم ، هبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء » .

وبعد أن صب الشيخ لنفسه ولضيوفه قدحاً آخر من الشاى . . استأنف حديثه قائلا : « إن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كان فى الأمة رأى عام يخيفها ، ويلزمها أداء واجباتها ، والوقوف عند حدها » .

فى هذه اللحظة دخل رجل غريب إلى المقهى . رجل لا يعرف من بين الحاضرين سوى الشيخ محمد عبده . لقد انحنى الغريب على أذن الشيخ محمد عبده ، وهمس له ببضع كلمات انزعج لها الشيخ الشاب كثيراً ، وسأله : أين سمعت هذه الإشاعة ؟

رد الرجل الغريب : إنهم يرددونها فى كل مكان . .

ونهض سعد زغلول يسأل الشيخ محمد عبده : خير ؟ ما الخبر ؟

قال الشيخ محمد عبده هامساً فى أذن سعد زغلول : هناك إشاعة بأن الخديو توفيق قرر أن يقتل أستاذنا جمال الدين الأفغانى !

***

ولد جمال الدين الأفغانى ببلاد الأفغان سنة ١٨٣٨ ، من أسرة عربية مسلمة تنتمى إلى الحسن ابن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه .

وفى صدر شبابه تعلم الأفغانى الفارسية والعربية ، ودرس الفلسفة الإسلامية والتصوف ، على طريقة التعليم فى بلاده وعصره . وقد بدأ الأفغانى يمارس السياسة مبكراً فى شبابه ، إلى أن وصل فيها إلى مركز رسمى يماثل منصب الوزير . لقد حاول وقتها أن يحمى بلاده من تدخل الدول الأجنبية . وعندما أخفق فى ذلك ترك المركز والأهل والوطن ، وبدأ سياحة طويلة فى الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية .

لقد سافر الأفغانى إلى باريس ، بعد أن علم نفسه بنفسه اللغة الفرنسية فى ثلاثة أشهر . وبعدها سافر إلى الحجاز وتركيا وروسيا والهند وإنجلترا ، وبلاد أخرى كثيرة .

إنه فى كل بلد يزوره يدعو إلى الحرية . . . ويحارب الظلم والعبودية وديكتاتورية الحكام والسلاطين ، وفى كل مكان يهبط فيه الأفغانى ، كانا يزرع بذور التمرد والثورة والحرية بين الناس . وكان هذا هو ما فعله فى مصر عندما أتى إليها فى شهر مارس سنة ١٨٧١ .



إن الشيخ محمد عبده يصف حال مصر قبل أن يصل إليها جمال الدين الأفغانى فيقول : « إن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة ، بل والخاصة أيضاً ، ملكاً لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته . ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ؛ ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرَّفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضرب به عليهم . وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية . ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد على باشا الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد على باشا الكبير وإبراهيم باشا ، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣هـ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل . ولو حدّث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التى يوجهها إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن يجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال » .

أتى جمال الدين الأفغانى ليجد مصر فى هذه الحال ، فاستمر مقيماً بها ثمانى سنوات .

ومع كل سنة تمر على الأفغانى فى مصر كان يرى الأحوال تزداد سوءاً ، والناس يزدادون سكوتاً ، لأن الخديو يزداد ظلماً واضطهاداً .

إن الخديو إسماعيل كان مثل رب أسرة ، لا يكفيه دخل أسرته لسد حاجاته . . فبدأ يستدين من الخارج . . مستخدماً ديونه فى بناء القصور له ولحاشيته ، وفى مختلف أنواع الرفاهية التى ينظر إليها الشعب ويتحسر عليها . وهكذا توالت القروض التى حصل عليها إسماعيل ، فبلغت فى سنة ١٨٧٥ نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهات .

وكانت هذه فرصة للدائنين الأجانب للتدخل فى شئون مصر ، بحجة ضمان تسديد ديونهم ، وجاءت بعثة « كيف » سنة ١٨٧٥ لفحص مالية مصر . وفى العام التالى أنشئ صندوق الدين ، لكى يتسلم المبالغ المخصصة للديون من الجهات الحكومية ، فأصبح حكومة داخل الحكومة ، وزاد على ذلك نظام الرقابة الثنائية الذى فرض على الخديو ، وبمقتضاه أصبح هناك مراقبان : أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى : على الإيرادات والمصروفات ، وبعدها تطور هذا النظام أيضاً حتى أصبح وزارة



مختلطة يرأسها نوبار باشا وتضم أول وزيرين أوربيين ، وزيراً إنجليزيـّـاً للمالية ، ووزيراً فرنسيـّـاً للأشغال .

***

رأى جمال الدين الأفغانى ذلك كله فى أثناء إقامته بمصر . ولأنه اعتاد منذ وقت مبكر فى حياته أن يمارس السياسة ، لم يستطع أن يمنع نفسه من دعوة الناس إلى الاستيقاظ من غفلتهم ، وإلى التنبه لحكامهم وما ساقوهم إليه ، وإلى نشر بذور الثورة ضد النفوذ الأجنبى والتدخل الأجنبى .

لقد بدأت جهود السيد جمال الدين الأفغانى تسير فى خطين متوازيين . إنه من ناحية يعقد دروساً فى بيته ، يلقيها على عدد من طلبته . . ومن ناحية أخرى يعقد ندوة يومية للمفكرين والمثقفين ، يعقدها فى بيته أحياناً ، وفى مقهى بحى الأزبكية أحياناً ، وفى مقهى بالحى الحسينى أحياناً أخرى .

إن « السيد » يعطى هذه الدروس والندوات كل جهوده ووقته . إن كل ما يهمه فى حياته هو أن يدعو إلى مبادئه وأفكاره . إنه لم يرتبط بأسرة ، ولم يستعبده مال ، ولم يجذبه النفوذ ، ولم يخفه بطش الحكام .

لقد كون جمال الدين الأفغانى جماعة من الشيوخ والشبان . . يشجعهم فيها على الكتابة ، ويحرضهم على تعليم الشعب وتثقيفه وتنبيهه لحقوقه . وقد اختار منهم واحداً توسم فيه الكفاية والمقدرة ، وهو شاب لبنانى يقيم فى مصر اسمه أديب إسحق ، وشجعه على أن ينشئ جريدة اسمها « مصر » تصدر فى القاهرة . لقد كان جمال الدين يرسم لأديب إسحق خطة الجريدة ويشير عليه بموضوعاتها ، ويكتب هو نفسه بعض مقالاتها التى يوقعها باسم مستعار هو « مظهر بن وضاح » .

ولم يكتف جمال الدين بذلك ، بل إنه أرسل أديب إسحق إلى الإسكندرية لكى ينشىء هناك جريدة يومية ثانية اسمها « التجارة » . يكتب فيها الشيخ محمد عبده وأمثاله من الشباب المتعلم المثقف الغيور على وطنه .

وبالطبع لقيت الجريدتان نجاحاً كبيراً ، ولكن لانغماسهما فى السياسة ، وحدة المقالات التى يكتبها فيهما جمال الدين الأفغانى ، قرر رياض باشا ناظر النظار إغلاقهما ومنع صدورهما .

ومع ذلك فإن الأفغانى يستمر فى نشر مبادئه وأفكاره .

إنه يوجه أديب إسحق إلى أن يكتب فى جريدة « الوقائع المصرية » وغيرها ، فيكتب مثلا تحت عنوان « أوربا والشرق » مقالا يقول فيه : قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب من كل جانب . .

وبتوجيه منه أيضاً يكتب الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم – وإن وجبت طاعته – هو من البشر



الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته . . إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

وبتوجيه منه أيضاً يصدر يعقوب صنوع مجلة هزلية اسمها « أبو نضارة » ينتقد فيها سياسة الحكومة وسياسة الخديو إسماعيل .

إن جمال الدين الأفغانى يريد أن يتحرر الشرق من تدخل الدول الأجنبية ، ويريد أن يتحرر الشعب من عبودية الحكام ، ويريد أن يخضع الحاكم لرأى عام قوى وحاسم ، ويريد أن يفهم الناس أنهم أصحاب السلطة ، وما الحكام إلا ممثلون لهم يخضعون لرقابتهم عليهم ويلتزمون بمحاسبتهم إياهم .

إن الخديو توفيق — بعد أن خلف أباه إسماعيل فى الحكم — يستدعى جمال الدين الأفغانى إلى قصر عابدين ويقول له : « إنى أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن — مع الأسف — أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة » .

ولكن جمال الدين الأفغانى يرد على الخديو : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص. إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم . وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، وأمرتم بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم ، كان ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » .

ولكن الخديو لا يقتنع بآراء صديقه القديم جمال الدين الأفغانى . لقد كان مقتنعاً بها قبل أن يصبح حاكماً . أما بعد أن أصبح خديو مصر ، فإنه يريد أن يحكم الناس بيد من حديد ، ويريد أن يأمر هو والناس تطيع ، يقرر هو والشعب ينفذ ، يظلم هو والناس تخضع . إن آراء الأفغانى ونصائحه لا تؤثر فيه ، ولا تقنعه . لهذا يستمر فى سياسته ، غير مقتنع بشىء سوى أن الشعب خامل جاهل .

ولكن الأفغانى يستمر هو الآخر فى نشر آرائه ومبادئه ، غير خائف من بطش الخديو

إنه يقول مخاطباً الفلاح المصرى : « إنى لأعجب منك أيها الفلاح . تشق الأرض بفأسك باحثاً عن رزقك . . لماذا لا تشق بهذه الفأس صدور ظالميك ؟ »

وهو يقول محرضاً الشعب المصرى : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تتحملون نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم



صابرون بل راضون ، وتسترق قوام حياتكم – التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم – بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . . »

***

هكذا يستمر جمال الدين الأفغانى فى نشر آرائه ومبادئه ، ناشراً بين تلاميذه وأصدقائه وزواره ، وأخيراً بين صفوف الشعب ، بذور التمرد والغليان والثورة . إن واحداً من معاصريه كتب يقول عنه : « إنه فى خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً ، لأنه تدخل فى السياسة ، وأخذ يقرب منه العوام » .

ولكن الخديو لم يسكت على هذا الخطر الذى اسمه : جمال الدين الأفغانى !

لقد بدأ أتباع الخديو يطلقون على السيد « الزنديق جمال الدين » ، و « الملحد جمال الدين » ، ومنهم من استكثر عليه اسمه فبدأ يذكره باسم « ضلال الدين » أو « الأفغانى الأفاق » !

ولم يعبأ الأفغانى بكل هذا . بل استمر يدعو لأفكاره ومبادئه ، واستمر صوته يعلو ويعلو . . داعياً لتلك الأفكار والمبادئ . . وأخيراً . . قرر الخديو أن يتخلص من الأفغانى .

لقد اجتمع مجلس الوزراء وقررنفى جمال الدين الأفغانى خارج مصر ، لأنه « .. رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » .

ولم يكتف بيان الحكومة بذلك ، وإنما ذكر البيان أيضاً أن الحكومة « . . أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية ، بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس إلى الأقطار الحجازية ؛ لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد ، عبرة للمعتبرين ، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين ، البادى من أفعالهم الظاهرة ، أنهم لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة » !

هكذا قبضت الحكومة على جمال الدين الأفغانى ، وتابعه « أبى تراب » . . فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وقادهما الجنود بالقوة إلى محطة سكة الحديد ، وأركبوهما بالعنف القطار الذاهب إلى السويس ، حيث أودعوهما باخرة متجهة إلى مياه بومباى فى الهند .

وقبل أن تتحرك الباخرة ، كان جميع العارفين بفضل الأفغانى فى توديعه ، ومعظمهم من تلاميذه .

وعندما عرض عليه بعضهم مائة جنيه ، لم يقبلها جمال الدين الأفغانى . لقد رد إليهم النقود وهو يقول : أنتم أحوج إلى هذا المال .

وقال له أحدهم : أنت الآن منفى إلى بلد لا تعرف أحداً فيه ، فاقبل منا هذه النقود لأنك فى حاجة إليها أكثر منا .





وهنا رد الأفغانى : الليث لا يعدم فريسته أينما ذهب !

ولم يكن هذا الرد غريباً عليهم من الأفغانى . لقد قال لهم كثيراً قبل ذلك : إن ملابسى على جسمى وكتبى فى صدرى ، وما يشغلنى فى رأسى .

وفى ذلك اليوم كانت هذه الكلمات صحيحة تماماً ، مع شىء واحد يزيد عليها ؛ الألم . الألم الذى احتفظ به الأفغانى فى قلبه .

***

عند ما وصل الأفغانى إلى الهند ، اختار أن يقيم فى حيدر أباد ، منفيا لا يسمح له بمفارقتها ، ولا يستطيع أن يشترك فى عمل إلا حديثاً مع زائر ، أو قراءة فى كتاب ، أو رداً على سؤال .

لقد ألف فى خلال تلك المدة كتاباً بعنوان « الرد على الدهريين » . وهو كتاب أصبح مشهوراً بعد ذلك ، لأنه رد فيه على مذهب « داروين » الذى كان قد انتشر وقتها .

هذا بالنسبة لجمال الدين .

أما بالنسبة لتلاميذه فى مصر ، فإنهم أحسوا أن الحكومة إذا كانت قد نجحت فى طرد جسد جمال الدين الأفغانى من مصر ، فإنها لم تطرد أفكاره ومبادئه ، التى استمرت تعيش وتنمو وتنتشر من خلال تلاميذه وأصدقائه . لقد انعكس هذا كله فيما بعد ، عندما شارك معظمهم فى الثورة العرابية التى قادها أحمد عرابى .

وعندما حدثت تلك الثورة ، نقلته حكومة الهند من حيدر أباد إلى كلكتا ، وألزمته الإقامة فيها تحت حراسة ورقابة مشددتين ، حتى انتهت الثورة باحتلال الإنجليز لمصر . بعدها فقط أبيح له الذهاب إلى حيث يشاء ، ما عدا الدول الشرقية .

***

هكذا نجد الأفغانى فى لندن سنة ١٨٨٣ .

إن الإنجليز استدعوه إلى لندن عند ما حدثت ثورة المهدى فى السودان . وهناك عرض عليه اللورد ساليسبورى أن يتوجه الإنجليز سلطاناً على السودان .

هنا نهض الأفغانى من على كرسيه محتدا غاضباً عنيفاً وقال : « إن مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها . . إن عرش السودان للسودان ، وليس لكم أن تعرضوه على أحد » !

لقد حاول الخديو فى مصر أن يشترى سكوت الأفغانى من قبل بالإرهاب . . وأخفق .

والآن يحاول الإنجليز أن يشتروا سكوته بالإغراء ، وبالعروش . فأخفقوا أيضاً .

إن الأفغانى يعد بمبادئه وأفكاره — أقوى من الإرهاب وأغنى من العروش . إنه لايريد ذهباً ولا فضة



ولا سلطة ولا جاهاً ولا مركزاً . إنه يريد فقط . أن ينشر مبدأ ويدعم فكرة .

هكذا غادر الأفغانى لندن ، وتوجه إلى باريس . ومن باريس اتصل بتلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ، الذى كان منفياً هو الآخر فى بيروت ، واجتمعا فى باريس ليصدرا مجلة « العروة الوثقى » .

إن المجلة الجديدة خصصت صفحاتها للدفاع عن حقوق الشعوب ضد مضطهديهم وجلاديهم ، ولإلهاب ظهور الدول الاستعمارية وكشف مطامعها فى مصر ودول الشرق . لهذا قررت الحكومة فى مصر منع الجريدة من الدخول .

ولم يكن هذا هو العمل الوحيد الذى قام به الأفغانى فى باريس . لقد اشتبك مع الفيلسوف الفرنسى « رينان » فى جدل علمى دينى لفت إليه أنظار المفكرين الإنجليز والأمريكيين ومعظم المستشرقين

وهكذا عاش الأفغانى فى باريس إلى أن أرسل إليه شاه إيران يستدعيه ، محاولا إقناعه بالسفر إلى إيران والإقامة بها . . وسيلقى كل تكريم ، وتلقى أفكاره كل ترحيب .

وهكذا شد الشيخ رحاله . . . إلى إيران .

***

لم تكد تمر فترة بسيطة على الأفغانى فى إيران ، حتى غادرها وسافر إلى روسيا .

لقد كان اختياراً غريباً من الأفغانى أن يسافر إلى روسيا ، ولكنه اعتاد فى حياته أن يجد لأفكاره تربة خصبة فى أى مكان يذهب إليه . ربما من أجل هذا أقام الأفغانى فى روسيا ثلاث سنوات كاملة .

وفى سان بطرسبرج عاصمة روسيا ( حينئذ ) استدعى قيصر روسيا جمال الدين الأفغانى وسأله ما سبب خلافك مع شاه إيران ؟

ورد الأفغانى : السبب هو أننى أدعو إلى أن يكون الحكم شورى . . أما هو فيرى غير ذلك .

قال القيصر : الحق مع الشاه . . إذ كيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟

رد جمال الدين : أعتقد ياجلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه . . من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص .

وهنا غضب القيصر من رد الأفغانى ، ونهض واقفاً ، مقرراً بذلك انتهاء المقابلة !

***

غادر الأفغانى روسيا متوجهاً إلى باريس ، وفى أثناء رحلته تقابل مع شاه إيران ، الذى اعتذر له عن سوء معاملته ، وعرض عليه العودة إلى إيران ، ووعده بأن يمهد له طريق الإصلاح الذى يقترحه ، وبعد تردد من الأفغانى . . قرر أخيراً أن يصدق الشاه هذه المرة ، وعاد إلى طهران .

ومرت أسابيع تتلوها الأسابيع على الأفغانى فى إيران وبدأ جمهور العلماء والعظماء يلتفون حوله



ويعلنون اقتناعهم بأفكاره . ودعوته إلى إقامة حكومة نيابية ، فأحس الشاه بالخطر من جديد .
وفجأة ، أمر الشاه بالقبض على الأفغانى .

هنا أسرع الأفغانى ليحتمى فى مقام سيدنا « عبد العظيم » ، وهو مقام يقدسه أهل إيران ولكن الشاه أرسل إليه خمسمائة جندى مسلحين ، وانتزعوه من المقام المقدس .

وعندما عاد الأفغانى بذاكرته بعد ذلك إلى الوراء ، وصف هذا المشهد قائلا : « . . سحبونى على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة ، ثم حملنى زبانية الشاه — وأنا مريض — على دابة مسلسلا بين الثلوج والرياح » .

هكذا نفى الأفغانى من جديد إلى البصرة .. وعندما استرد عافيته ذهب إلى لندن . . حيث أصدر مجلة شهرية بالإنجليزية والعربية يهاجم فيها الشاه وينشر فضائحه .

وعندما توسل الشاه إلى السلطان العثمانى عبد الحميد ، لكى يتوسط لدى الأفغانى ويصلح بينهما ، دعاه السلطان إلى الآستانة ليقيم فيها .

وفى الآستانة عامله السلطان معاملة طيبة ، وقرر له راتباً شهرياً ، وعرض عليه منصب شيخ الإسلام ، ولكن الأفغانى اشترط لقبول المنصب أن ينفذ السلطان آراءه فى الإصلاح . لهذا كان لا بد فى النهاية أن تسوء العلاقة من جديد بين الأفغانى وبين السلطان عبد الحميد ، مثلما ساءت من قبل بينه وبين كل حاكم مستبد .

لقد خرج مرة من مقابلة له مع السلطان عبد الحميد ، فوجد رئيس الديوان يعاتبه قائلا : إنك يا شيخ جمال الدين كنت تلعب بحبات مسبحتك فى أثناء مقابلتك لجلالة السلطان . . وهذا لا يجوز . . !

وساعتها رد عليه جمال الدين : إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء ؟!

* * *

هكذا تطورت حياة الأفغانى فى الآستانة ، بحيث أصبح منزله فى النهاية معتقلا له ولأفكاره ، بعد أن حاصره السلطان بالجواسيس والرقباء والحراس . . وفى النهاية اتهمه بأنه يتآمر عليه .

وعندما مرض الأفغانى فى الآستانة ، أرسل إليه السلطان عبد الحميد طبيبه الخاص ، فغمس لسانه فى ميكروب . . وأصيب بالسرطان ، ومات فى عام ١٨٩٧ ، وأمر السلطان بدفنه على وجه السرعة .

نعم . لقد مات المصلح العظيم جمال الدين الأفغانى . . ولكن أفكاره لم تمت ، ولن تموت !